# فصول من سيرة لم يُعلن عنها

# السَّمِيُّ

محمد الخالدي

حجرٌ توهَّجَ في الأقاليم القصيَّهْ
ونبا فأورث حَيْرةً
وقفتْ على عَنَتٍ بها اللغة العصيّهْ
لغتي التي هَرِمتْ وما برِحتْ صبيّهْ.
فجرٌ نَأى وأضَاءَ مشْتعِلاً
ـ أتلكَ مَدارِجُ الياقوتِ والبلّورِ أمْ لهبٌ؟
ـ هو الوادي المقدَّسُ ينْجلي
بَلَقاً وبلّوْراً وأعمِدةً ذهبْ،
حصبَاءَ من يَشْبٍ وشَبْ

***مَدَدْ... مَدَدْ***
***رُؤْيَا تَشِفُّ وفِتْنَةٌ***
***ما رامها قبلي أحدْ***
***مددْ.... مددْ***
***كبْريتُهم حطبٌ وكبْريتي لهَبْ***

النُّورُ واليَخْضُورُ بعضُ مباهِجي أوَ مَا تراني
إمَّا خطرتُ تبرَّجتْ من سُكْرها الأرضُونَ
وانبسطتْ: فكلُّ الأرض نورٌ شَعشَعَاني؟
فتَنٌ من الأنْوارِ والألوانِ تهْبِطُ في يديَّا
ورُؤىً تجيءُ كأنها فَلَقُ الصّباحِ
تطوفُ بي وتَرِفُّ من فرحٍ عليَّا
عَبَقٌ وأدْعيَةٌ وذكْرُ
أنّى مشيتُ مواكبٌ تَتْرى وبِشْرُ
ما أكثر الأشياءَ تهتِفُ بالسَّمِيِّ وللسَّمِيِّ
ولا عجَبْ

**كبيرتهُم حطبٌ وكبْريتي لهبْ**

ما بالُه الوادي توهَّج والتهَبْ؟
ما بالُه الحجرُ الوضيءُ مُكوَّماً قِبَباً قِبَبْ؟
ما ذاك؟ إنّي لا أصدّقُ ما أرى
ـ هُوَ موْكبُ الأجْدادِ جاؤوا يسألون عن السَّمِيِّ
عن وارثِ الألْقابِ، عن وهَجِ النّبِيِّ
ـ هذا أنا. ومشيتُ كيْ ألقَاهُمُو
فهمَتْ عليَّ وسلْسلَتْ أوْرَادُ
ـ أتُراهُمُو قد عَادوا؟
عطفُوا عليَّ وبَاركُوني
وعلى ممَالِكَ من مباهجَ توَّجُوني:
خُذْ نفْحةً من عشقِنا
خذْ جمرةً من شوقِنا
وأضْرِمْ بها مُدنَ الهوَى تنْهَضْ مفاتنُها
ويُتْلَ الآتيْ، إنّا معشَرٌ وُلد الهوى
في حيِّنا وبه ابْتُلينا
النّيلُ عمَّدَنَا ودجلةُ والفراتُ وما ارتَوَيْنا.

لهبُ الجزيرة لَوْ دَرَى من نفْحنا
وحنينُها الأبديُّ بعضٌ من جوانا
رقّتْ شمائلُنا وشفَّتْ فاصْطفانا
كلُّ الأُلَى عشِقُوا وصاروا من رَعايانا...
هذا المدى نجتازهُ في خُطْوةٍ
هذي السّماءُ نجوبها في لحظةٍ
فإذا رنا طَرْفٌ لنا
زُوِيَتْ لنا الأرضُون واختُصِر الزّمانُ
وإذا طحا شوقٌ بنا
عَطِرَ الفضَا ورَبَتْ جِنانُ.
خلعُوا عليَّ عباءةً من سُندسٍ ودَعَوْا
فعَمَّ النُّورُ واخْضَرَّ المكانُ
ـ هذي مطارِحُ وحْيِنَا فاقْبسْ من الأسْرارِ
والأنوارِ وارْكَبْ إن تَشَأْ
هذي الغيومَ وهذه السُّحبَ الشريدةَ في السّماءِ
ـ ماذا أرى؟
ـ لا تكترثْ. هيَ حيْرةُ الرَّائينَ
تخطفُ لبَّهم فِتَنُ المَرائي

***نورٌ على نورٍ وأعمدةٌ ذهبْ***
***حَصْبَاءُ من يَشْبٍ وشَبْ***
***ومجاهلٌ ما رامها قبلي أحَدْ***
***مدٌ.... مدٌ...***
***كبْريتهُم خشَبٌ وكبريتي لهَبْ***

هشُّوا إليَّ ونَاولُوني
خمْراً وكأساً من مَعينِ
وتحلّقُوا ولِهينَ بي ولَهاً ولا وَلَهَ الأَوَالي
كشفُوا لي الأسْرارَ والأحْوالَ
ـ هذا النّورُ مَبْعثُنا وهذي جنّةُ العشّاقِ
فاقْطُفْ من مفَاتِنِها فإنَّا لم نزَل في روْضها
الأقطابَ والأبْدالَ تحْدُو خطْوَنا الأوْرَادُ
والسّبْعُ المثاني...
أتريدُ صحبَتَنا؟
ـ بلى!
أتريدُ صحبتَنا؟
ـ بلَى!...
زُوِيَ الفضَا وانْصَاحَ عن درٍّ يشِفُّ وعن جُمانِ
فمشيتُ فيه بلا دليلٍ ـ حائراً ـ أو ترجمانِ
تَرَفٌ وظِلٌ سَجْسَجٌ ومساكبٌ عن عسجَدٍ
ألِقٍ ومن نورٍ وليدِ
ـ أمَطارحُ الأنوار هذي أم شواردُ من قصيدي؟
ورأيتُني في برْزَخٍ لا ينتهي... أمشي
فينَسكبُ الضياءُ ويرتمي جُزُراً وأعمدةً ذهبْ
ـ أهيَ السّماءُ تهِشُّ لي
وتشِبُّ من شوقٍ إليَّ وتلتهبْ

***مدٌ... مدٌ***
***كبْريتهُم حطبٌ وكبريتي لهبْ***

تاه الأُلَى شرِبُوا المدامةَ قبلَنا
قلْنا لهم لا تعجَلوا
لم تَشْرَبُوا تلك التي كانتْ لنا
نحن اجْتَبَيْنَا قبلكم رَاوُوقَها خَضِلاً
فلمّا تعْتعَتْنا الخمرُ ماد المنْتَهَى من سكرِنا
ومشى الزّمانُ
أنّى لكم أن تشرَبوا تلك التي كانتْ لنا
أنّى لكم... وشرابُكم ـ لو تعلمون ـ
بقيّةٌ من كأسنا!

يمْضي الزّمانُ ولا يجودُ بمثلِنا
يمْضي ولا نمْضي، فإنّا نحنُ أوّلُهُ
وإنّا نحنُ آخرُه... وإنّا
شابتْ ذوائبُه ومَا شبْنا
ذُبْنا هوىً وصبابةً... ذبْنا وما تبْنا
نحنُ ابتدعْنا الحبَّ قبل أوانِهِ
فجرَتْ بنا الأفْلاكُ وابْتَدأَ الزّمانُ.
العاشقون وما رَوَوْا
والأوْلياءُ وما رَأوْا
ظِلٌّ لنا، فكلامُهم ورُؤاهُمُو بُهتانُ
غنّوا مواجدَهم فلمْ نحفَلْ بهم
زعمُوا الصبابة خِلْقةً وزهَوْا
فلم نحفَلْ بهمْ
رَوَوْا قصائدَهم... روَوْا... ورَوَوْا
فلم نحفَلْ بهمْ
جهلُوا الصبابةَ والهوى
إنّا الصّبابةُ والهوى حقّا بهمْ
النورُ بعضُ ضيائنا يَسْري
فيخضَرُّ المدى وتُهلِّلُ الأكوانُ
أنّى مشيْنا فرْحَةٌ، أنّى انْتَحْينا مِهرجَانُ

***بَلَقٌ وبلّوْرٌ وأعمدةٌ ذهَبْ***
***شابَ الزّمانُ ولم نشِبْ***
***لمّا نزَلْ ريْعَانَهُ يزْهُو بنا***
***فمتى خطرْنا هشّت الأرضُونَ***
***وانْبَسَطتْ لنا حصْبَاءَ من يَشْبٍ وشَبْ***

هلْ بدعةٌ لم نأْتِها؟
هل روضَةٌ مَحَلَتْ ولمّا نُحْيِها؟
هل خمْرةٌ عَتُقَتْ وَلَمّا نسْبِها من دَنِّها؟
هل فتنَةٌ خطرَتْ ولمّا نُذْكِها فتَشِبُّ؟
إنّا معشَرٌ موْتورةٌ أقوالُنا
مشهودةٌ راياتُنا
مشهورةٌ آياتُنا
هذي ممالكُنا وهذا دأبُنا
سكْرٌ وشطحٌ ما لنا من توْبةٍ أبداً
وما للشّوق في أعماقنا من هجْعةٍ
ندْعُو إذا ما هزّنا وجْدٌ فيصْطَلِمُ الوجودُ لوجْدنا،
ونُشيرُ إمّا تعْتعتْنا الخمرُ غِبَّ مَسَرّةٍ
فتجيئُنا الأقمارُ والأسحارُ ترفُل في غلائلها،
تحطُّ الكعبةُ الزّهراءُ بين خيامِنا فيُهلّلُ الأبْدالُ
والأقطابُ: ـ مرْحَى! ألفَ مرْحى! كعبةَ الأجدادِ
هذي نارُنا اضْطَرَمَتْ فَحلِّي في حَرائقِنا
وهلّي موكباً من فرحةٍ، طُوفي بنا،
إنّا أقمْنا كعبةَ العشّاقِ قبل قيامِنا
فزهتْ بنا الأمْصارُ واغْتلم الزّمانُ
طوُفيْ بنا وتوهّجي
فقلوبُنا مثْواكِ مُذْ ضاق المكانُ

***لم نتّبعْ ديناً سوى دين المحبّةِ والهوى***
***لم نَقْتَرفْ ذنباً سوى ذنب المحبّة والهوى***
***لم نَعْتَمِرْ تاجاً سوى تاج المحبةِ والهوى***
***وُلد الهوى في حيّنا وبه ابْتُلينا***
***النّيلُ عمّدنا ودجلةُ والفراتُ وما ارتوينا***

مِنْ ذِكْرنا ينْدى الهوى
ولذكْرنا تتوهّجُ الأفلاك والملأُ الرحيبُ
مِنْ ذِكْرنا ولذكرنا تَنْدى الصّحَارَى القفْرُ
من توْقٍ فيكْسُو عُرْيَها اليَخْضُورُ والعودُ الرّطيبُ
من ذكرنا ولذكرنا تهْفُو وتنْشرحُ القلوبُ
أنّى خطرْنا خُضْرَةٌ
أنّى أقَمْنا مُزْنَةٌ تهْمِي وطيبُ

قلْ للّذين توسّلوا هذي الطّريقَ تمَهّلُوا
إن الطّريقَ طويلةٌ ما رامَها إلاّ نبيٌّ والِهٌ
أوْ عاشقٌ مجْذُوبُ

هيَ لَذَّةٌ ما بعْدها من لَذّةٍ
أن نقْتَفِي أثَر الجمالِ ولا نَؤُوبُ
يمْضي الشّبابُ ولا نتُوبُ
يمضي الزّمانُ ولا نتُوبُ
يمضي ولا نمْضي، فإنّا نحنُ أوّلُهُ
وإنّا نحنُ آخرُه... وإنّا
شابتْ ذوائبُهُ وما شبْنا
ذُبْنا هوىً وصبابةً... ذبْنا وما تبْنا!

لي صحْبَةٌ ألِفُوا المُدامَ وأقْسَمُوا ألاّ يُفيقُوا
يصلُونَ ليْلهُمُو بأي الصُّبْحِ ما فترُوا
ولا هَدَأَ الحريقُ
أبداً يهزُّهُمُو الحنينُ فإنْ صَحَوْا صَاحُوا:
أدرِْها قبلَ يُدْركنا الشرُّوقُ
ولْيَعْلُ أكْؤُسَنَا البريقُ
فنَشيمَ بَرْقاً خاطفاً
ونشيم نوراً هلّ يجْلُو المشرقيْنِ
فنرى الحِمَى والرّقمتْيْنِ
والكعبَةَ الزهراءَ تسْفُرُ ثمّ تَدْنُو
كيْ تُضيءِ المغْرِبَيْنِ....
لي صحبةٌ أغْشَاهمو فيهلّلون لمقْدَمي
ويُهيّئُون لمجْلِسي الفُرُشَ الأنيقَةَ والأرائِكَ
ـ مرْحباً، يا مرحْباً، هذي موائدنا
وأمّا خمْرُنا فمُدامَةٌ عَتُقَتْ
وأمّا نُقْلُنا فمباهجٌ لا تنْتَهي..
وتصفِقُ الأقداحُ
ونظلُّ نشربُ، لا ننِي
حتى إذا ثمِلَ الصّحابُ وطوّحُوا بدأ الطّوَافُ
أغَضَاضَةً أنْ نستَبِي روحَ السُّلافِ وَقَبْلَنا
أسلافُنا سكِروا وطَافوا.

لغتي تضيقُ
ماذا لو اتّسعتْ حروفُ الأبجديّهْ
فأقولَ مِعْراجي ورؤْيَايَ النبيَّهْ؟!
ماذا لو اتّسعتْ فيْهدأ في دمي هذا الحريقُ
أتَوسّلُ اللغة العصيَّةَ تثْنني
ـ ما لي وللرُّؤْيا النَّبِيّةِ تصْطَفِيكَ فلا أطيقُ
أنّى لهذي الأبْجدية أن ترودَ مَجَاهِلاً
من لألأٍ ألِقٍ فلا يجْتَاحَها هذا البريقُ!
لغتي تضيقُ
وكلّما راوَدْتُها جَفَلَتْ
لتتركَني وفي دميَ الحريقُ

منْ أشعلَ النّيرانَ قبلَكَ؟
ـ لا أحدْ
من أطلع الأقمار قبلكَ؟
ـ لا أحدْ
هل طاف قبلَك طائفٌ هذا المدى؟
ـ ما طاف قبليَ منْ أحدْ
لم يعرِفِ الشعراءُ هذي الأرضَ قبلي
لا ولا وَجِدُوا كوجْدي
وحدي أقمتُ مَضَاربي في أرضكم.. وحدي
جُبْتُها فوجدتُني في أرضكم وحدي
.... ....
.... ....
خَرقَ الصّفُوفَ وخلفَه النُّقَبَاءُ والأنْجابُ:
ـ مرْحَى بالسّميِّ، وهَشَّ لي
ألْقى عباءته عليَّ وقالَ لي:
خَتْمُ النّبُوّةِ كان لي
وختمْتَ أنت الشّعرَ بعدي!

**تونس**